الموسيقى والغناء عند العرب *

بقلم حضرة الاستاذ الفاضل عيسى افندي اسكندر المعلوف
مدرّس آداب اللغة العربية والخطابة في المدرسة الشرقية العليا

انَّ العرب لم يكونوا اقلَّ ولعاً بهذا الفن من غيرهم لصفاء اذهانهم ورقة طباعهم وميلهم الى الاخلاق الدمثة والعواطف اللينة فاشهر ما رُوي عنهم في زمن جاهليتهم من هذا الفن الغناء وبعض الآلات الموسيقية كالدف والمزمار والمزهر وغيرها . وكانت القبيلة منهم اذا نبغ فيها شاعر تقاطرت اليها القبائل الأخر تهنئها فتقام الولائم وتضرب المزاهر . وكثر ذلك في كثير من اجتماعاتهم ولا سيما في مثل سوق عكاظ وغيرها . ولعلَّ ميلهم الى الشعر هو الذي حبَّب اليهم فنَّ التطريب لانهما اخوان ومصدرهما واحد . قال شاعرهم :

تغنَّ في كل شعر انت قائلهُ انَّ الغناء لهذا الفنّ مضمارُ

وكان امرؤ القيس يسير في احياء العرب بجماعة من قبائل مختلفة وفيهم المغنُّون والندماء والشعراء فيطوفون احياء العرب حتى اذا لاقوا غديراً او روضةً نزل امرؤ القيس وذبح لهم الذبائح وخرج الى الصيد فيقيمون على ذلك أياماً ثم يرتحلون

ولقد روى العرب عن الموسيقى ما رواهُ غيرهم من الجاهليين . فانَّ ابا اسحق ابرهيم الموصلي قال من قصة طويلة انَّ ابليس ظهر لهُ فبعد ان اسمعهُ من الغناء ونقر العود ما هو مشهور بهِ طرب واستأذنهُ في الغناء والضرب فاذن لهُ فغنَّى ابليس وضرب حتى ظن الموصلي انَّ الحيطان والابواب وكل ما في البيت يجيبهُ ويغني معهُ وقال القطامي :

* من خطاب في الموسيقى والغناء ألقاه حضرة المؤلف في حفلة توزيع الجوائز على طلبة المدرسة الشرقية في زحلة يوم الخميس في ١٩ تموز من هذا العام وقد تكلم فيهِ ١ عن الهواء والصوت ٢ عن تاريخ الموسيقى عند جميع الامم ٣ عن تأثيرها ٤ عن آلاتها ٥ عن اصولها وآدابها ٦ عن المولعين بها والمؤلفين فيها . وقد زاد في هذه المقالة ما لم يورده في ذلك الكلام عن العرب

تبيت الغول تهزج ان تراهُ وصنج الجنّ من طرب يهيمُ

وجاء في اخبارهم انّ الغناء العربي كان في اول امره حداء ارشدهم اليهِ ابوهم مضر. لانهُ خرج مرة في طلب مال لهُ فوجد احد غلمانهِ قد تفرّقت ابله. فضربهُ على يدهِ بالعصا فعدا الغلام في الوادي وهو يصيح: « وايداه. وايداه » فمطفت الابل عليهِ عند سماعها ذلك الصوت فقال مضر: لو اشتقّ من الكلام مثل هذا لكان صوتاً تجتمع عليهِ. فاشتقّ الحداء. ومعناه اللغوي السوق والانعطاف. ثم عرفوا الترنيم وهو انشاد المنظوم. والتنبير وهو انشاد المنثور مأخوذ من الغابرة اي الباقية كانهم يرغبون الناس بها. ومن الاول تنوين الترنّم عند النحاة كقول جرير بن الخطفى التميمي:

اقلّي اللوم عاذلَ والعتابَنْ . وقولي إن اصبتُ لقد اصابَنْ

ثم اشتهر عندهم بعد ذلك ثلاثة اجناس اولها « النَصْب » وهو ارق من الحداء كان يتغنى بهِ الركبان والقينات في المراثي وهو يخرج من بحر الطويل. وسمع انس بن مالك اخاهُ البرّاء يغنّي فقال ما هذا. قال ابيات عربيّة انصبها نصباً. وثانيها « السناد » وهو اللحن الثقيل الترجيع الكثير النغمات والنبرات. وثالثها « الهزّج » وهو اللحن الخفيف الذي يُرقص عليهِ ويمشى بالدُفّ والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم. والأهزوجة ما يُتغنّى بهِ

ومن قيناتهم الجرادتان (١ مغنيتا عبدالله بن جدعان في مكّة وهما اول من غنّى في العرب. ومن غنائهما حين حبس عنهما المطر قولها:

ألا يا قيلُ ويحك قم فهينمْ لعلّ الله يصبحنا غماما

وكان الغناء مستعملاً عندهم في الحرب كما يظهر من قول شاعرهم حيّان بن ربيعة الطائي:

لقد علم القبائل ان قومي ذوو جدّ اذا لبس الحديدُ
وانّا نعم احلاس الثغور اذا استعر التنافر والنشيدُ
وانّا نضرب الملحاء حتى تولّي والسيوف لنا شهودُ

١) راجع لفظة « جراد » في شفاء الغليل للخفاجي

واشتهرت امهات القرى من بلاد العرب في الغناء وكانت مجامع اسواق العرب

ولقد عرف الغناء في صدر الاسلام . ولما اختلط العرب بالفرس والروم في ذلك العهد اخذوا عنهم صناعة الموسيقى والغناء واول من غنّى في الاسلام الغناء الرقيق طويس وهو هذا البيت :

قد براني الشوق حتى كدتُ من وجدي اذوبُ

واول مطرب عندهم كان سعيد بن مسجح وهو الذي نقل الالحان الفارسية والرومية الى العربية وعرف الضرب على ذوات الاوتار كالعيدان ونحوها . ومنهم ابن محرز المعروف بصنّاج العرب . قال اسحق : قلت ليونس من احسن الناس غناء فقال ابن محرز . قلت وكيف ذلك . قال : ان شئتَ اجملتُ . وان شئتَ فصّلتُ . قلت اجمل . قال : كان يغني كل انسان بما يشتهي كأنهُ خُلق من قلب كل انسان . وابن سريج اول من ضرب بالعود على الغناء العربي قال البحتري :

اشهى واحلى من معبدٍ نغماً وابن سريجٍ ونازل النَجَفِ

واشتهر من المطربين ايضاً الغريض ومعبد . وكان معبد اذا غنى واطرب قال : انا اليوم سريجيّ . وكانوا يقولون لكل من اجاد في الغناء سريجيّ قال ابو تمّام :

محاسن اصناف المغنين جمّة وما قصبات السبق الّا لمعبدِ

واشتهر في عصر الأمويين كثير من المطربين اشهرهم ابو جعفر بن عائشة كان يفتن السامعين بحسن غنائهِ ويضرب المثل في حسن ابتدائهِ . ومنهم بديح الذي سأل معاوية مرةً عن مجلسهِ فقيل لهُ مجلس رجل يداوي الآذان وكان يغني وهو يضرب على العود

اما في عصر العبّاسيّين فقد ارتقى هذا الفن كغيره من الفنون لكثرة تعريب الكتب الأعجميّة واعتناء الخلفاء فنالت الموسيقى حظها من ذلك ومن كبار الموسيقيين في زمن الرشيد ابرهيم الموصلي واسمعيل بن جامع وفليح بن العوراء وهؤلاء الثلاثة امرهم الرشيد بضبط الغناء فاختاروا لهُ منهُ مائة لحن(١ ثم اختصروها فصارت عشرة

١) على هذه المائة بنى الاصبهاني كتاب الاغاني المشهور . وقد طبع المختار منهُ في مطبعة الآباء اليسوعيين الافاضل في بيروت بمجلدين وهو من افضل كتب الادب وابلغها عبارة

ثم اقتصروا على ثلاثة منها : اولها لحن معبد في شعر ابي قطيفة وهو :

القصر فالنخل فالجناء بينهما اشجى الى القلب من ابواب جيرون

والثاني لحن ابن سريج في شعر عمر بن ابي ربيعة وهو :

تشكّى الكسيُّ الجري للجهدة وبيّن لو يستطيع ان يتكلّما

والثالث لحن ابن محرز في شعر نصيب وهو :

اهاج هواك المنزل المتقادمُ نعم وبه مما شجاك معالمُ

وكان ابرهيم الموصلي اول من اتخذ القضيب للايقاع عند الانشاد . قال ابنه اسحق : صنع ابي ثمانية صوت منها دينارية ومنها درهمية ومنها فلسية . فثلثمائة منها تقدم فيها جميع الناس وفاق على كل مغنٍ وثلثمائة شاركهُ فيها المغنّون فصنعوا مثلها وثلثمائة لعب وطرب فاسقطت الثلثمائة الاخيرة . فكنت اذا سُئلت قلت : صنع ابي ثمانية صوت

واسحق هذا هو الذي هذّب هذه الصناعة ووضع حدودها وميّز طرائقها فنالت به الغاية . وعن اوضاعهِ الموسيقية اقتبس الاتراك الحانهم الشجيّة وكان اسحق يضرب على العود المشوّش وهو الذي تترك اوتارهُ بلا وزن ولا تسوية ويوهم السامع انهُ يضرب على عودٍ مسوّى قد عُدّلت اوتارهُ . قال الشريشي : معبد اطبع المغنين المتقدمين واسحق الموصلي اطبع المغنين المتأخرين . وكان زلزل عند العرب اضرب الناس للوتر فاق من قبلهُ ومن بعدهُ ولم يكن يغنّي وانما كان يضرب على ابرهيم الموصلي وابن جامع ويرصدهما . وكانت نصيبين جارية المأمون تضرب على العود حتى انها ضربت مرة اربع وعشرين طريقة . وزُنام من ابرع المزامرين بالناي حتى انّ الرشيد كان يصحبهُ معهُ الى الصيد فقال لهُ مرّة وقد تأهب للخروج تأهب يازنام لترافقني . فقال لهُ : باذا اتأهب الريح في فمي والناي في كمي

واشتهر الفارابي بالضرب على القانون واشتهر غيره بغير ذلك مما لا موضع للافاضة فيه

ونشأ في هذا العصر فن « الموالي » المعروف عند عامتنا بالمواّل وهو نوع من الغناء رثت فيهِ موالينا (١ جارية جعفر البرمكي المشهور مولاها عند ما نكب البرامكة ونهى

١) وقيل في اصل الموالي غير ذلك

الناس عن ان يرثوهم بشعر فاخترعت وزناً مخالفاً للشعر رثته به

ونشأ بعد ذلك في عهد هولاكو التتري صفي الدين عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الموسيقي البغدادي وكان يجمع عنده القينات فيؤلف جوقاً يطرب به السامعين وقد انام بغنائه وضربه على العود هولاكو وكان معهُ قينة اسمها ضياء لم يكن في بغداد ارخم منها صوتاً . واشتهر في بغداد مغنٍ آخر يعرف بالفيور وكان يتخذ القينات ايضاً

وبقيت هذه الصناعة في حلب حتى ان احد سكانها المسمَّى بشاكر قدم القطر المصري في اوائل القرن الثامن عشر وعنهُ اخذت ساكنة المشهورة ثم نبغ الشهير عبده الحمولي فوفَّق الاوزان التركية على العربية لمَّا زار الاستانة العليَّة وسمع فيها الآلات ثم عاد الى مصر وزاول هذا الفن فاشتهر به وقيد نحو عشرين صوتاً بالعلامات (النوط) وهو الذي يقول فيهِ احد الشعراء النوابغ المرحوم الشيخ نجيب الحداد اللبناني :

يسبح فوق العود بلبلها لمن ... براهُ كما غنَّى على العود عبدُهُ
اديب اذا ما جسَّ اوتار عوده ... تفاوح مسك اللحن منهُ ونَدُّهُ
فما طيب ارواح الصبا ان شدا الصبا ... وما رصدات الكنز ان بان رصدُهُ
اذا ما شدا ينسي العراقَ عراقهُ ... ويلهو باربابِ النهى نهوندُهُ

*

اما تأثير هذا الفنّ فيهم فقد جاء في بعض كتبهم « انَّ اهل الطب يعتقدون ان الصوت الحسن يسري في الجسم ويجري في العروق فيصفو لهُ الدم ويرتاح لهُ القلب وتنمو لهُ النفس وتهتز الجوارح وتخفُّ الحركات ومن ذلك كرهوا للطفل ان ينوَّم على اثر البكاء حتى يرقص ويطرب » اه وقد حقَّق بعض اطباء العصر مثل هذا انَّ للالحان تأثيرًا على دورة الدم . واتخذه ابن سينا لعلاج امراض السوداء والكبد

ومما يروى من امثلة ذلك التأثير ان سلَّاماً الحادي ابتدأ مرة في الحداء وبالقرب منهُ ابل قد أظمئت وأُوردت الماء فرفعت رؤوسها وتركت الشرب . وكان مخارق المشهور بصوته الرخيم يغنّي يوماً في منتزه وقد سنحت ظباء فجاءت اعجاباً بغنائهِ . وكان بديح في حضرة معاوية يغني ويضرب على العود قائلًا :

امن أم اوفى دمنةٌ لم تكلّمِ بحومانةِ الدرّاج فالمتثلمِ

فحرّك عبدالله بن جعفر رأسهُ . فقال معاوية : لِمَ حركت رأسك يا ابن جعفر . قال : اريحيـة اجدها يامولاي لو لاقيت عندها لابليت . ولئن سُئلت عندها لاعطيت . (فكنى بذلك ان الكرم اثارَ فيهِ عاطفتي الكرم والحماسة) ثم غنّى لحناً آخر . فطرب معاوية طرباً شديداً وجعل يحرّك رجلهُ . فقـال ابن جعفر : يا سيدي سألتني عن تحريك رأسي فاخبرتك وانا اسألك عن تحريك رجلك . فقال : معاوية كل كريم طروب . ثم قام وبعث الى كل منهما بجائزة وخلعة

ولمّا تولى المأمون الامر بقي عشرين شهراً لم يسمع نغمةً وكان متغيّراً على اسحق الموصلي شيخ مطربي العرب في عهدهِ . فاشار اسحق الى عاوية ان يغني هذين البيتين في مجلس المأمون وهما :

يامشرع الماء قد سُدّت مسالكهُ اما اليكَ سبيلٌ غير مسدودِ
لحائمٍ حار حتّى لا حياةَ بهِ مشرّدٍ عن طريق الماء مطرودِ

فسأل المأمون لمن هذين البيتين فقال لهُ علوية هما لاسحق الموصلي فبعث اليهِ وقرّبهُ ولم يتركهُ

وكان ابو القاسم بن جامع من طبقة ابرهيم الموصلي في الغناء . ولكن احسن ما يكون غناء اذا حزّن صوته . فاحب الرشيد ان يسمع ذلك . فاشار الى الفضل بن ربيع ان يبعث اليهِ بنعي والدتهِ وكان برّاً بها فلما عرف بموتها اندفع يغني بصوت حزين حتى ابكى كل من كان حاضراً . وكان الغلمان يضربون بزوسهم الحيطان والاساطين تأثراً فاجازهُ الرشيد بعشرة الاف درهم واخبره ان النعيَ كاذب فسرّي عنهُ

ومن ذلك انّ البلبكيَّ مؤذّن المنصور رجّع في أذانهِ ليلة وجارية تصبُّ الماء على يد المنصور فارتعدت حتى وقع الابريق من يدها . فقـال لهُ المنصور خذ هذه الجارية فهي لك ولا ترجّع هذا الترجيع

ويروى انّ الامام الفارابي قدم بالقانون على سيف الدولة بن حمدان فحدث في مجلسهِ ما حمل الفارابي على الضرب عليهِ فاضحك كل من حضر ثم غيّر اللحن فابكاهم ثم غيّرهُ فانامهم وانفضّ من بينهم منصرفاً

غبطة السيد الجليل بولس بطرس الثاني عشر صباغيان
بطريرك قيليقية الكلي الطوبى

وهكذا فعل صفي الدين البغدادي الموسيقي مع هولاكو لمَّا سأله ما تأثير غنائك فقال انني انوّم من يسمعني وكان كذلك

ويؤثر الطرب في العجماوات حتى ان العرب تقول : « النحل اطرب الحيوان كله على الغناء وانَّ افراخها لا تستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن ». ومن امثالهم قولهم « فلان اطرب من الابل على الحداء والنحل على الغناء » وقال شاعرهم

والطير قد يسوقهُ للموتِ ... اهتزازهُ الى حنين الصوتِ

وقال الآخر :

ولا تشرب بلا طربٍ فاني ... رأيت الخيل تشرب بالصفيرِ

وقال الآخر واجاد :

ان كنت تنكر ان في الالحان فائدةً ونفعا
فانظر الى الابل التي هي اغلظ الحيوان طبعا
تصغي لاصوات الحداء فتقطع الفلوات قطعا

ومن تأثير الالحان العربية ان الاوج العراقي مبهج ويحسن انشاده عند غروب الشمس . والصبا منوّم . والرصد مُسكر ولذلك يقولون ان طال ليلك فارصد . والحجاز محزن . والدوكاه والبيات مطربان . والنهاوند مشوّق الخ (لهُ بقيَّة)

كِتَاب لنسطور

بقلم حضرة الاب الفاضل المورلي بطرس عزيز نائب بطريرك الكلدان في حلب

لنسطور زعيم الهرطقة المسمَّاة باسمهِ كتاب وضعهُ باليونانية بعد ان حُرم وأُنزل عن مقامه وارسل الى النفي دعاه « تجارة هيرقليدس الدمشقي » والاصل مفقود وكان قد ترجم الى اللغة الكلدانية منذ ظهوره ولم يبقَ منهُ سوى نسخة واحدة محفوظة في خزانة بطريرك النساطرة في قوجانس . وفي هذه السنين الاخيرة استخرجها من هناك المرسلون الاميركان في اورميه واستنسخها الدكتور غوشن لمكتبة ستراسبورج وقد اطلع عليها الاب بولس بيجان واخذ عنها بعض الفقر درجها في ملحق كتاب الرؤساء لتوما المرجي